من مباذل دمشق :

نحن والتجـــار . . .

الأستاذ على الطنطاوى

أكتب هذه الكلمة والمطر يهطل منذ ثلاث ليال ، ما انقطع خيطه ، ولا سكت صوته ، أقبل بعد سنة مضت ، شحت فيها السماء ، وضنّت السحب ، ففرح به النـاس واستبشروا ، وانتظروا عاماً خيّراً مباركاً ، يغاث فيه الناس ، ويأتيهم الفرج بعد الشدة ؛ غير أن الخير إن زاد عن حده ، كاد ينقلب إلى ضده ، وكذلك المطر لما استمر صار الناس يسألون الله الجفاف ، ويتمنون لو تطلع الشمس ، والشمس ماتطلع ، والمطر ماينقطع ...

ووكفت السقوف ، ونزّت الجدران ، واسّاقطت غرف ، وسالت طرق الجبل أودية ، فامتلأت بالحصى والحجارة ، وغدت أباطح ، ووقف سيلها الدفّاعُ السيارات وحافلات الترام ، واختبأ الناس فى البيوت ، وما تكاد البيوت تمنع برداً ولا بللاً ، ونال حىّ المهاجرين (على سفح جبل قاسيون) مالم ينل مثله حياً فى فى دمشق ، وحى المهاجرين نصفه قصور من الصخر شامخات ، ذات طبقـات كثر وشرفات ، ونصفه دور لمساكين ، هى أكواخ من اللبن والطين ، وما فى بلدنا مكان يلتقى فيـه الفقر المدقع المتجمل الصابر ، والغنى السفيه الوقح المبذر ، كما يلتقيان وجهاً لوجه فى المهاجرين . أما بيوت الأغنياء فما أحسّت المطر ولا درت به ، ونام من فيها على فخم الأسرة ووثير الفرش ، لايعنيهم من خبر السماء وخبر الأرض إلا أن تشبع بطونهم ، وتمتلىء صناديقهم ، ويسلم لهم أولادهم وأهلوهم ، وأما أكواخ الفقراء ، فقد صبرت على المطر صبر الكريم ، واحتملت ليـلة وليلتين . فلما جاوز الحمل الطاقة ، خرت فى المعركة ، كما يخر البطل الشهيد ، وخرج من بقى من ساكنيها فراراً منها حين لم تعد دوراً وإنما صارت بركاً ومستنقعات . . .

سقوف بيوتى صرن أرضاً أدوسها

وحيطـان دارى ركّع وسجود

وسمعت فى الليل هزّة ، اهتزت لها الدور ، ورجفت منها القلوب ، فقمت أستقرى الخبر ، فاذا دار جيراننا قد هوت . . .

... ومضت ساعة ، وأهل الحية من الناس يعملون فى الوحل والمطر والبرد ، ليواسوا أسرة نزل بها القضاء ، وينقـذوا مايستطيعون إنقاذه ، من فرشها ومواعينها ، وذلك القصر ينظر الينا ثم يعرض عنا ، قد شغلته حفلة أقامها تلك الليلة لا أدرى فيم أقامها ، ولا تزال أنواره ساطعة فى عيوننـا ، ونساؤه الكاشفات يتراءين لنا من وراء الزجاج فى الحرير والذهب ، وأصوات الغناء والمرح فى آذاننا ، تهزأ بالفقر وأهله ، وتضحك وقحة فى مآتمهم ، وترقص فاجرة فى مقابرهم ، والسيارات تقف فى بابه تنزل منها باقات الزهر ، وثمن كل باقة يحيى الأسرة من هذه الأسر أياما ، والهدايا التى تذهب بالمال ولا تأتى بالنفـع لوحات مصورة ، وكؤوس منقوشة مذهبة ، وتماثيل للناس وللبهائم ، لو وزعت أثمانها على فقراء الحي لم تدع فيه فقراء ، والفضيلة قد توارت خجلاً فى زاوية الطريق ، وابليس واقف يضحك مسروراً بأن سلب نفراً من أمة محمـد فضائل دينها ، ومروءتها ، وأن ثأر من آدم فجرد بعض بنيه من بشريتهم ، وأحالهم شـياطين فى أجسام بشر ، أو ذئابا قد استخفت فى الثياب ... ولم أقل كلابا لئلا أشتم الـكلاب !

فلما جاء إلى الشيخ قال : «أبو العلاء المعرى فى الاطلاع على اللغة».

يقول الامام الشافعى فى (رسالته فى أصول الفقه) :

« لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى » .

ولو أحاط إنسان غير نبى بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وإن لم يحط به فله فقد أحاط ــ كما يخالـ بجله . وتلميذه أبو زكريا التبريزى يقول كما ذكر ابن العديم فى كتابه (الانصاف والتحرى) : « ما أعرف أن العرب نطقت بـكلمة لم يعرفها المعرى[1] » .

(١) فى (أوج التحرى) هذا القول وهو منسوب الى الشيخ فى حديث له : « ... والله ما أقول إلا ماقالته العرب ، وما أظن انها نطقت بشىء ولم أعرفه »

ونعجب بعد هذا من ابراهيم بن أدهم لما أخرجوه ليستسقى لهم ، وقالوا له قد استبطأنا المطر ، فادع الله لنا ، فقال : تستبطئون المطر ؟ أنا والله استبطىء الحجارة ...

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »

* * *

وما هذا القصر لملك ولا أمير ، ولكنه لتاجر من هؤلاء التجار الذين يحيون فى أيام الحروب التى يموت فيها الناس ، ويغنون حين يفتقرون ، وينسون أن لهذا الكون إلهاً قادراً عادلاً جباراً ، ما استقال ولا أحيل على المعاش ، ولا يزال لهم بالمرصاد ، وينسون أن الموت آت لامفر لهم منه ، وأن قبل الموت المصائب والرزايا ؛ الفقر والثكل والمرض ؛ وأن بعد الموت الحساب ، وبعد الحساب جهنم أو الجنة ، أفبلغ بالتجار أن يعلنوا الحرب على الله ؟

إننا نعيش بحمد الله فى منجاة من القتال وأهواله ، والحرب وبلاياها ، ومالنا عدو يحاربنا ، وما عدونا الا هؤلاء المحتكرون أعداء الله وأعداء البشر ، الذين حبسوا أقواتنا ، وأخفوا أرزاقنا ، وارتصدوا لنا أن نجوع ونعرى ، ليكنزوا الذهب والفضة ويطيفوا بها إطافة الوثنى بصنمه ، وليريقوا فيض مالهم على أرجل بنات إبليس : الأرتستات الراقصات ، وفى معابد الشهوة المَلْهَيَات ونوادى القمار ، وفى كؤوس الجيم التى اسمها الشمبانيا والويسكى ، يحارون ماذا يشترون بمالهم من اللذاذات المحرمة ، وفى أى مطرح من مطارح التبذير يلقونه ، والموظفون والعمال لا يكادون يجدون ثمن الغذاء والكساء ، إلا موظفاً خان أو عاملا سرق ، فما حال الأرملة المفردة ، واليتيم الضائع ، والشيخ الذى لاسناد له من مال أو ولد ، وعندنا فى دمشق من الأرزاق والبضائع ما لو أخرج لكفانا الحاجة سنين أخرى ، بل إن عندنا كما أكد لى من يوثق به ، بضائع لاتزال فى مخازنها منذ الحرب الماضية ، والناس يحتاجون اليها والتجار يخفونها يرتقبون بها يوماً أشد ، ومضائقة أحكم ، لايدرون أن كل من أخفى بضاعة أو حبسها ينتظر بها ارتفاع الأسعار ، وحرمها من هو فى حاجة اليها فهو محتكر قل ما حبسه أو كثر ، وهو عدو مؤذ ، ولص سارق ، وليس بتاجر ، لأن التجارة كما يفهمها عقلى القاصر إنما تكون بنقل البضاعة من بلد تكثر فيه إلى بلد هى فيه قليلة ، أو بجمعها فى موسمها لبيعها فى غير موسمها ، أو بشرائها جملة وبيعها أفراداً ، ويأخذ التاجر الربح المعقول على مابذل فى ذلك من ماله ومن عمله ، أما مانراه اليوم من اجتماع النفر من التجار حول مائدة من الرخام فى (قهوة الكمال) مثلا ، وفى أيديهم أقلامهم وفى أفواههم دخائنهم أو أنابيب نراجيلهم ، يبيع أحدهم (بالة الخام) أو (كيس السكر) عشرين مرة بأسعار مختلفة ، ويشتريها ، وما باع على التحقيق ولا اشترى ، ولا قام من مكانه ولا أخذ ولا أعطى . ثم ينفض الاجتماع وباقى الستار على من ربح منهم عشرة آلاف ليرة ، أو من خسر مثلها ... أما هذا وأشباهه — وما أكثر أشباهه — فما هو لعمر الحق الا القمار بعينه وأنفه وذنبه ...

وإذا كان حقاً ما اعتمده (رينان) ، من أن الدولة تقوم على (الإرادة المشتركة) ، لا على الأرض وحدها ولا اللغة منفردة ، إلى آخر ما فى « نظريته » المعروفة ، فليس التجار منا ولا نحن من التجار ، لأنهم يريدون غير ما نريد ، ولا إرادة مشتركة بيننا وبينهم ، فنحن نرجو الرخص وهم يتمنون الغلاء ، ونحن نحب أن تنتهى الحرب وهم يحبون أن تدوم ، ونحن نطالب من الحكومة أن تسعّر وتراقب ، وهم يطلبون لأنفسهم حرية إجاعتنا وتعريتنا ، ونحن لا نجد مالاً نشترى به لوازمنا ، وهم لا يجدون لذة جديدة يصرفون فيها أموالهم ، فأى جامعة بيننا وبينهم ؟

* * *

وإذا كانت الرسالة قد جردت قبل الحرب[1] قلمها البليغ ، لنصرة أكرم مبدأ ، مبدأ الإحسان ، والدفاع عن الفقراء والمحتاجين ، وإثارة الحمية فى نفوس الأغنياء القادرين ، ذلك والدنيا فى رخاء ، والحياة سهلة ، والسلام قائم ، فأولى أن تستل هذا القلم العضب اليوم ، حين اشتد الخطب ، واتسعت بين الفريقين

(١) فى النصف الأول من سنة ١٩٣٩

الشقة ، وازداد الأغنياء غنى ، والفقراء فقراً ، ونشأت هذه الطبقة المحدثة النعمة ، التي شبعت من المال ولا تزال في جوع إلى الرفاهية والبلهنية واللذائذ : طبقة « أغنياء الحرب »

إن أهل القصر لا يزالون في لهوهم وقصفهم ، وأهل الكوخ لا يزالون في كدهم وجدهم ، والمطر دائب ما ينقطع ، والبرد قارس ما يخف ، والليل موحش مخيف ، فمن لهؤلاء المساكين ، إن لم تجرد لنصرتهم الأقلام من أغمادها ، وتُشرع حتى تصدع على هؤلاء الأغنياء حجارة القصر الذي اعتصموا فيه ، ليروا ما بالناس ويسمعوا ما خطب المساكين ، من إخوانهم في الوطن واللغة والدين . إنهم في سكرة الذهب ، فاصرخوا فيهم حتى يصحوا منها ، قبل أن يذهب السكر ويأتي « الأمر » ، فيروا أن أمر الله إذا جاء لا يرد . أفهموهم — وكيف السبيل إلى إفهامهم — أننا رأينا رأي العين ، ما قرأنا في الكتب ، ولا سمعنا من الناس ، من غنى في الحرب الماضية أكثر مما غنوا ، وبذر أضعاف ما بذروا ، ثم ذهب المال والأهل ، وغدا يسأل الناس على أبواب المساجد ، ولولا أنه يحرم التصريح بعد التلميح ، لصرحت بأسماء أقوام عرفناهم ، وإن جهلهم من قصرت سنه عن أسناننا .

* * *

على أنني ما أعمم القول ، ولا أطلقه إطلاقاً ، وإن في الموسرين لمحسنين ، وفي التجار لمنصفين ، وما تخلو طبقة من خير ولا من شر ، ولكن في الموسرين من يريد الإحسان ولا يعرف المستحق له ، ومن المستحقين من لا يعرف المحسنين ، ومنهم من يعرف ولا يسأل ، أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . وإن من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن ننشئ جمعيات موثوق برجالها ، بأمانتهم ودينهم ، تكون في كل حي كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج ، تأخذ من الأول وتعطي « بعد التحقق من حاجته » الثاني ، ومن عرفت أنه اتخذ السؤال حرفة — على مقدرة منه على العمل ، أو على مال له قد خبأه ، فعلّ أكثر هؤلاء المكدين — رفعت أمره إلى الحكومة لتعاقبه عقاب المتشردين . ويا ليت هذه الجمعيات الإسلامية الكثيرة في مصر والشام والعراق : الإخوان والشبان والهداية والتمدن وأمثالها ، تجعل ذلك المطلب من بعض مطالبها

ثم إن من أهم ما ينبغي لهذه الجمعيات أن تصنعه هو أن تختار للاحسان أسلوباً يهون به العطاء على المعطي ، وتجزل به المنفعة للآخذ . ولقد وجدت أنا واحداً من مائة أسلوب تخطر على البال ، حين كنت « من نحو ثلاث سنوات » قاضياً في القلمون ، وضاقت الأقوات وقل الخبز ، فدعوت إلى ما سميته « مشروع الرغيف » ، وأعانني عليه القائم بأمر المنطقة يومئذ[1] ففرضنا على أهل كل بيت من القادرين رغيفاً واحداً في اليوم وكلنا من يجمعه ، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين ، وتركنا من هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نعطهم ، وهذا الرغيف الذي لا يصعب إعطاؤه على أحد ، ولا تشعر به الأسرة ، أحيا الله به أهل القلمون — وهم أكثر من سبعين ألفاً — في سنة القحط والضيق ، وما ذكرت ذلك لأفخر به ، ولا لأنه الأسلوب البديع الذي لا نظير له ، بل لأمثّل به على ما أريد ، والعبرة بالأعمال لا بالأقوال

نسأل الله أن يوفقنا حتى نعمل ، ويرزقنا الإخلاص في عملنا حتى يقبل ، وألا يجعل هذه المقالة كالصرخة في البيداء .

(دمشق) علي الطنطاوي

(١) هو القائم مقام السيد زكي غزال من أنشط رجال الادارة في الشام

سيصدر بعد قليل كتاب :

دفاع عن البلاغة

بقلم

أحمد حسن الزيات

وقد أضيفت إليه فصول لم تنشر في « الرسالة »